المؤسسات التعليمية بالمغرب الأوسط:

يعود ازدهار الحركة الفكرية بالمغرب الأوسط إلى مجموعة من الوسائط والقنوات التي انتشرت عن طريقها العلوم والثقافة، وهذه الوسائط هي المساجد والكتاتيب والمدارس والمكتبات، وغيرها من المؤسسات الأخرى.

أ- المساجد:

منذ أن وضع الرسول الأكرم ﷺ، أساس مسجده بالمدينة المنورة، اضطلعت المساجد والجوامع في العالم الإسلامي برسالة تعبدية وعلمية خالدة، فإلى جانب هذين الدورين، كانت المساجد المقر الذي تناقش فيه قضايا المسلمين ومشكلاتهم السياسية والأمنية والعسكرية.

ومساجد المغرب الإسلامي بصفة عامة لم تكن في منأى عن هذا الإتجاه، فقد عرفت القيروان مثلاً العديد من المساجد التي أقامها التابعون وغيرهم لخدمة هذا الهدف، فهذا إسماعيل بن عبيد الأنصاري،أحد أفراد البعثة العلمية التي بعثها عمر بن عبد العزيز(99-101هـ/717-719م) يؤسس في تونس مسجداً كبيراً، أصبح يعرف فيما بعد بمسجد الزيتونة، وكذلك مسجد القيروان الذي قام بأدوار كبيرة في مجال التعليم والحركة الفكرية بصفة عامة.

وقد عرف المغرب الأوسط المساجد التي قامت بنشر الإسلام مع القيام بوظيفة التعليم وترشيد الناس أحكام الدين وتعليمهم اللغة العربية، ورغم سكوت المصادر عن أسماء المساجد في العهدين الأغلبي والرستمي، إلا أن هذه المؤسسة كانت منتشرة بكثرة في كل المدن والقرى.

أما في العهدين الحمادي والحفصي فاشتهرت بجاية بكثرة مساجدها، حيث يقدر أيفر عدد مساجد المدينة باثنين وسبعين مسجداً.

وقد أورد الغبريني(ت704هـ/1304م) في كتابه العنوان العديد من أسماء مساجد بجاية التي كانت ذات شهرة علمية كبيرة كمسجد الفقيه الشيخ أبي زكرياء يحي الزواوي (ت611 هـ/1214م)،ومسجد الإمام المهدي،ومسجد حومة اللؤلؤة المعروف بمسجد المرجاني.

كما تميزت بجاية بجامعها الخاص (الجامع الأعظم) كما يسميه برنشفيك، وهو جامع جميل، وذو شأن، أقدم من جامع القصبة .

ويصف لنا فيرو هذا المسجد بقوله: إن هذا المسجد الجامع كان رائعاً في هندسته تعلوه منارة علوها ستون ذراعاً، ويتميز بكبر بابه المرصع بالرخام، وعليه نقوش وكتابات عربية جميلة، أما بيت الصلاة فكله مبلط بالرخام وجدرانه مرصعة بالزخارف، ونقوش، وآيات قرآنية بالخط العربي الجميل ، وتعلو المسجد قبة ضخمة، وبه إثنان وعشرون باباً، منها أبواب مخصصة لدخول وخروج النساء.

لقد قامت مساجد بجاية بدورها العلمي والفكري بالإضافة إلى دورها الأساسي وهو الروحي، على أكمل وجه، حيث كان الشيخ أبي مدين شعيب (ت594هـ/1197م) يقيم مجالسه العلمية والصوفية بمسجد أبي زكرياء الزواوي ، وكان الشيخ أبي علي حسن المسيلي يأتي إلى الجامع الأعظم في الثلث الأخير من الليل للتهجد.

وكان الفقيه أبو العباس أحمد بن عبد الله المعافري يجتمع إليه الناس بالجامع الأعظم لحضور دروسه العلمية.

وكان للفقيه أبي فارس عبد العزيز بن مخلوف(ت686هـ/1287م) درسان الأول بمسجده بالغداة حيث يلقي الدروس الفقهية،بالإضافة إلى التفسير والأصول والآخر بالجامع الأعظم بين الصلاتين،أي بين صلاة المغرب والعشاء، حيث يخصصه لإلقاء الدروس على العامة من أهل بجاية.

كما عرفت تلمسان الكثير من المساجد كالجامع الكبير الذي بناه المرابطون سنة530هــ، وهو من أشهر المساجد وأكبرها، ومسجد سيدي أبي الحسن الذي أسسه السلطان أبو سعيد عثمان سنة 696هــ، وهو تحفة فنية معمارية، ومسجد إبْنَيْ الإمام الذي شيده السلطان أبو حمو موسى الزياني الأول حوالي سنة 710هـ، ومسجد سيدي أبي مدين شعيب الذي بُني حوالي سنة 739هـ، في عهد أبي الحسن المريني، ومسجد سيدي الحلوي الذي بناه السلطان أبي عنان المريني سنة 750هــ، ومسجد سيدي إبراهيم المصمودي الذي أسسه السلطان أبو حمو موسى الثاني سنة756هـ.

وكانت طريقة التعليم في المساجد تتم بجلوس الأستاذ أو الفقيه على كرسي حتى يراه جميع الطلبة،أو مستنداً على ظهره على عمود أو ركن من أركان المسجد، وحوله يجلس التلاميذ أو طلبة العلم في شكل حلقة محيطين به، وكانت الأبواب تفتح والحضور مباح للجميع، إلا في حالات خاصة، وكانت الدروس التي تلقى في المساجد متعددة بين الدينية واللغوية، على حسب تخصص الفقيه أو الأستاذ المدرس.

ب- الكتاتيب:

الكتاتيب،جمع كُتّاب، وهو لفظ مشتق من التكتيب، أي تعليم الكتابة، ويقال له أيضاً المكتب،أو لمسيد،وهو تحريف لكلمة مسجد صغير.

تعد الكتاتيب من أقدم المؤسسات العلمية التي ساهمت في التعليم، فالكتاتيب عرفت منذ عصور الإسلام الأولى وإلى يومنا هذا، حيث لا يخل منه شارع ولا حيّ من الأحياء في المدن والقرى، فالكتاتيب تعد النواة الأولى في العملية التعليمية.

ولقد شهدت حواضر المغرب الأوسط، ظهور هذا النوع من المراكز العلمية، حيث كان الهدف الأسمى من إيجاد تلك الكتاتيب تنشئة الصبيان تنشئة دينية قوية تقوم على أساس حفظ كتاب الله، أو جزءً منه، بالإضافة إلى الإلمام بقواعد اللغة العربية، وبعض مبادئ الشريعة، كتعليم أركان الصلاة والصوم، مع شيء يسير من علوم اللغة والنحو ومبادئ الحساب.

وتنقسم أوقات الدراسة في الكتاب على ثلاثة أقسام تتخللها فترات للراحة. وكانت الأدوات اللازمة للدراسة في الكتاب بسيطة، تتكون من مصحف قرآني،وأدوات الكتابة المكونة من لوح مصنوع من الخشب،وقلم مصنوع من القصب أو من ريش النعام، بالإضافة إلى الحبر.

وكانت الكتاتيب تنتصب إما في المسجد، وإما في أماكن خاصة، فالخاصة هي التي تنتصب في قصور الأمراء والوزراء، أما العامة فقد كانت تقوم في الأزقة التي تكون من تنظيم الأهالي.

وكان المؤدب يلقى كل أنواع الإحترام والتقدير من السكان، ولازالت هذه الصفة إلى يومنا هذا، ويصف لنا المالكي قصة مهمة تدل على مكانة المؤدب فيقول عن القاضي عبد الله بن غانم إذ يروى أن:<<إبنه دخل عليه وقد إنصرف من المكتب، فسأله عن سورته، فقال له الصبي: حولني المعلم من سورة الحمد، فقال: إقرأها، فقرأها، فقال له: تهجها، قال(أي راوي القصة): فتهجاها، فقال هل أرفع ذلك المقعد، فرفعه، فإذا تحته دنانير كثيرة، قال: وأبو عثمان شاك في عددها أي الراوي، إلا أنه أكثر من العشرة، ودون العشرين، قال: فحصلها إلى معلمه فدفعها له، فأنكر المعلم ذلك وأتى بها إلى ابن غانم، وأخبره أن الصبي أتاه بها، فقال له ابن غانم كالمعتذر:< لم يحضرني غيرها يا معلم، أتدري ما علمته، علمته:﴿ الحمد لله رب العالمين﴾ بحرف واحد مما علمته، خير من الدنيا وما فيها >>.

وللأسف الشديد لا تُسعفنا المصادر والمراجع بذكر شيء عن كتاتيب المغرب الأوسط، حيث لم تذكر المصادر أماكنها أو أعدادها، أو أبرز المعلمين القائمين على إدارتها.

جـ- المدارس:

يبدو أن أول ظهور للمدارس كان ببلاد فارس، حيث بنيت المدرسة البيهقية في نيسابور، وأسس نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي(465-485هـ/1072م-1092م)المدرستين المشهورتين اللتين تعرفان باسمه في بغداد و نيسابور،حيث كان الإمام أبي حامد الغزالي يقوم بالتدريس في المدرسة النظامية ببغداد، ثم نيسابور في أواخر القرن الخامس الهجري.

وتأسست أول مدرسة في سبته سنة(635هـ/1237م) ،ثم تأسست المدرسة المستنصرية مابين سنتي(655-658هـ/ 1257-1260)في طرابلس، والتي يصفها التجاني: بقوله <<... وأحسنها المدرسة المنتصرية التي كان بناؤها على يد الفقيه أبي مُحَمَّد عبد المجيد بن ابن أبي البركات بن أبي الدنيا رحمه الله تعالى وذلك مابين سنة خمس وخمسين إلى سنة ثماني وخمسين، وهذه المدرسة من أحسن المدارس وضعاً، وأظرفها صنعاً>>.

ثم ظهرت المدارس بعد ذلك في فاس،وغرناطة سنة(750هـ/1349م) وتلمسان في مطلع القرن الثامن الهجري/14م.

وقد اجتهد حكام وسلاطين المغرب الأوسط في إنشاء العديد من المدارس، بهدف الإرتقاء بالتعليم، ولتعميم الفائدة، خاصة إذا علمنا أن المؤسسات التعليمية الأخرى لم يعد بوسعها استيعاب الأعداد الكبيرة من الطلبة لاسيما في المدن.

وإن كانت المصادر التاريخية تمدنا بمعلومات عن عدد وأسماء المدارس التي كانت منتشرة في تونس وتلمسان ومدينة فاس بالمغرب الأقصى والتي تخرج منها الكثير من طلبة العلم في أنحاء المغرب الإسلامي، فإن هذه المصادر تسكت عن الحديث عن مدارس بجاية فلا تذكر عددها ولا أسماءها، وحتى الغبريني لم يتطرق في عنوانه إلى المدارس ولم يشر إليها سوى مرة واحدة عند حديثه عن العالم أبي عبد الله بن شعيب، حيث ذكر أنه<< وُلي المدارس فزانها بنظره وجمّلها بحميد أثره>>.

أما في تلمسان فقد عرفت الكثير من المدارس نذكر من أهمها: مدرسة إبني الإمام التي أسسها أبو حمو موسى الزياني بين سنتي (707-710هـ)، والمدرسة التاشفينية التي أسسها أبو تاشفين الأول، ومدرسة العُباد التي أُنشئت سنة 747هـ، والتي أنشأها السلطان أبو الحسن المريني بجانب مسجد وضريح أبي مدين شعيب، ومدرسة سيدي الحلوي التي بناها السلطان أبو فارس عنان سنة754هـ، والمدرسة اليعقوبية التي أسسها السلطان أبو حمو موسى الزياني الثاني تكريماً لوالده أبي يعقوب بين سنتي(763-765هـ)، ومدرسة الحسن بن مخلوف أبركان التي قام بإنشائها السلطان أبو العباس أحمد المعتصم بالله المشهور بالعاقل أثناء فترة حكمه من(834-866هـ).

أما عن الدروس التي كانت تلقى في هذه المدارس، فتنوعت هذه العلوم والمعارف إلى ثلاثة أصناف:

1)- العلوم الدينية: مثل القرآن الكريم وعلومه، كعلوم الحديث، الفقه، وأصوله، والتوحيد.

2)- علوم اللغة : كالنحو والصرف، والأدب، وعلوم البلاغة، وقواعد الإنشاء ، بإعتبارها مهمة جداً لإتقان العلوم الأخرى.

3)- العلوم الطبيعية والتجريبية : كعلم الفلك، والحساب، والطب، والصيدلة العشبية.

وكانت السلطة العليا في المدينة هي التي تدير المدارس، فالسلطة هي التي تدفع رواتب المدرسين من العلماء والأدباء والفقهاء من بيت المال،أومن الأوقاف ومن المحسنين، إضافة إلى إعانات أو منح تمنح لبعض الطلبة.

كما كان الطلبة يستفيدون من المأوى في هذه المدارس، حيث كانت هذه الأخيرة توفر لهم المبيت، على أن يتكفل الطلبة بمصاريف الإطعام واللباس.

أما الأساتذة والمدرسين فقد كانت رواتبهم مغرية ومشجعة جداً، وذلك لتشجيعهم على أداء وظائفهم على أكمل وجه.

د- الزوايا :

للزوايا رسالة سامية، وعمل نبيل يتمثل في المحافظة على الإسلام، وتعاليمه وذلك بالتركيز على تعليم القرآن والعناية بالعلوم الشرعية واللغوية.

والزوايا جمع زاوية، وهي مأخوذة من الفعل انزوى ينزوي، بمعنى اتخذ ركنا من أركان المسجد للاعتكاف والتعبد.

وسميت الزاوية بهذا الإسم لأن الذين فكروا في إنشائها أول مرة من الصوفية الذين اختاروا الانزواء والابتعاد عن صخب العمران وضجيجه طلباً للهدوء والسكينة اللذان يساعدان على التأمل والرياضة الروحية.

ثم تطورت الزاوية فيما بعد في شكل أبنية تضم مساجد لإقامة الصلوات الخمس، وفيها تعقد حلقات دراسية في شتى العلوم الدينية والعقلية من تعليم للقرءان وإلقاء لدروس الفقه والتفسير وعلوم الحديث ،كما يعقد فيها مشايخ الطرق الصوفية حلقات الذكر.

كما أصبحت الزاوية مكاناً لإقامة طلبة العلم، أين تتكفل بإيوائهم وإطعامهم، وتوفر لهم متطلبات معيشتهم، حيث يخضعون لنظامها التربوي والتعليمي، إلى جانب إستقبال وإطعام المسافرين وأبناء السبيل.

عرفت حواضر المغرب الأوسط الزوايا التي كانت تهتم بتحفيظ القرآن الكريم والتعليم، وقد ساهمت هذه الزوايا مساهمة فعالة في الحركة العلمية، وفي نشر التعليم بمختلف أطواره.

ويبدو أن ظهور الزوايا في بجاية قد بدأ أوائل القرن السابع الهجري/13م، حيث يذكر الغبريني في العنوان أن الفقيه أبا زكرياء يحي الزواوي (ت611هـ/ 1215م) كانت له زاوية، لكن يبدو من كلام الغبريني أن هذه الزاوية كانت للعبادة فقط، وكانت عبارة عن بناية صغيرة ملحقة بالمسجد، بينما كان يؤدي الصلاة، ويعقد حلقات دروسه بالمسجد.

ويذكر لنا الغبريني إسم زاوية أخرى من زوايا بجاية وهي زاوية أبي الفضل قاسم بن مُحَمَّد القرطبي (ت622هـ/ 1263) حيث يفهم من كلام الغبريني أن هذه الزاوية كانت تأوي الطلبة ومريدي الشيخ أبي الفضل، إلا أنهم كانوا يعتمدون على أنفسهم بأنفسهم، وذلك من خلال الخروج للصيد في البحر رفقة الشيخ.

ونتيجة للانتشار الواسع للتصوف، وعناية أمراء بجاية بالمؤسسات التعليمية أصبحت الزوايا مركز إشعاع فكري وروحي، كالزاوية الملارية بفرجيوة التي أسسها يعقوب بن عمران

البويوسفي(ت717هـ/1317م) الذي كانت له مراسلات عديدة مع شيوخ بجاية وصلحائها وعلمائها.

أما زوايا تلمسان فنذكر من أهمها: زاوية الشيخ سيدي أبي مدين شعيب، وزاوية سيدي أبي الحسن وزاوية سيدي الحلوي، وغيرها من زوايا العلم والعبادة.

هـ- المكتبات:

شكلت المكتبات أهمية بالغة لدى المسلمين، حيث لقيت من الحظوة والإهتمام شأناً جعلها من أهم وسائط الثقافة والمعرفة.

وقد حث القرآن الكريم على القراءة في أول آية أنزلت﴿ اقرأ باسم ربك ﴾، ومن هذا المنطلق إعتنى المسلمون بالكتب والمكتبات، حيث كانت أول مكتبة هي مكتبة النبي ﷺ، حيث تشكلت بما يجمعه كُتَّابُ الوحي من القرآن الكريم، ومن الرسائل والمعاهدات التي كان يبرمها النبي صلى الله عليه وسلم مع القبائل و الملوك والقياصرة.

ومع اتساع رقعة الدولة الإسلامية، وانفتاح العالم الإسلامي على العديد من الحضارات كالحضارة الفارسية واليونانية، وما صاحب ذلك من حركة الترجمة، التي ابتدأت في العصر الأموي، وبلغت مجدها في العصر العباسي، زاد الاهتمام بالمكتبات التي أصبحت تحتوي على أمهات المصادر، ونفائس المخطوطات في جميع العلوم والفنون، حيث نشطت حركة التأليف ، وازدهرت حركة الاستنساخ وتجليد الكتب.

والمغرب الإسلامي لم يكن ليقل اهتماماً بالمكتبات عن غيره من أقطار العالم الإسلامي، وذلك لدخول علماء المغرب الإسلامي ميدان التأليف مبكراً، حيث اشتغل علماؤه وأدباؤه وأطباؤه بالتأليف في جميع العلوم والفنون، مما شكل مجموعات ضخمة من المؤلفات والتصانيف، لاسيما أن الكثير من المؤلفين قد ألفوا في أكثر من علم.

وعرف المغرب الأوسط أشهر مكتبة على الإطلاق آنذاك وهي المكتبة المعصومة بتيهرت والتي أسسها عبد الرحمن بن رستم، ثم تطورت هذه المكتبة حتى وصل عدد كُتبها إلى أكثر من 300.000مجلد في مختلف العلوم الدينية واللغوية والعلمية، خاصة في علم الطب والرياضيات،

وللأسف الشديد فقد تم حرق هذه المكتبة من طرف الفاطميين عندما أسقطوا الدولة الرستمية سنة296هـ، ولم يتركوا إلا الكتب العلمية.

وبما أن بجاية كانت تشكل حاضرة علمية وحضارية، فمن الطبيعي أن تكون قد احتوت على مكتبات ، خاصة إذا علمنا أن العديد من أمراء بجاية قد ساهموا في إنشاء وإثراء هذه المكتبات،غير أننا نتفاجأ بعدم العثور على معلومات كافية توضح احتواء بجاية على تلك المكتبات، اللهم إلا بضع الإشارات التي لا تروي الظمأ، حيث يذكر المؤرخ الفرنسي < شاربونو> أن تفسيراً نقلته العالمة عائشة البجائية بخطها، مما جعل أمير بجاية يجعله بالمكتبة السلطانية ببجاية، وككتاب الثعالبي،يتيمة الدهر في شعراء أهل العصر، الذي رآه الغبريني(ت704هـ/1304م) بنفس المكتبة.

ومن مكتبات تلمسان نذكر مكتبة السلطان أبو حمو موسى الثاني التي أنشأها سنة 760هـ، والتي كانت بالجامع الأعظم بتلمسان، ومكتبة السلطان أبو زيان مُحَّد الثاني والتي يذكُر التنسي بأنه رأى هذه المكتبة، وكان فيها الكثير من كتب التفاسير والفقه كصحيح الإمام البخاري، وكتاب الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ﷺ، للقاضي عياض اليحصبي، وبعض كتب التصوف.

وقد كانت المكتبات ترتب وتنظم وفق ترتيب علمي، من حيث حفظ الكتب، وفهرستها، وتنظيم أوقات المطالعة واستقبال روادها، حيث كان القيم على المكتبة يشترط أن يكون عالماً مثقفاً ذو مستوى علمي رفيع.

ويبدو أن أغلب المكتبات التي تأسست بالمغرب الإسلامي عموماً كانت جلها مكتبات سلطانية، حيث يكون الإشراف على هذه المكتبات يتم بأمر من السلاطين وتحت رعايتهم، كما كانت هناك بعض المكتبات الأخرى التي توجد في المساجد والمدارس،وبيوت العلماء وكبار القوم.

و- الحلقات الخاصة:

وهي حلقات يعقدها العلماء خارج المؤسسات العلمية التي ذكرناها، وكانت هذه الحلقات لا تقتصر على العلوم الدينية المعروفة فقط، بل كانت تشمل حتى العلوم العقلية و الفلسفية، والتصوف.

كما كانت بعض الحلقات تضم نجباء الطلبة، لأنهم يستحقون في نظر العديد من الشيوخ والفقهاء عناية خاصة.

يذكر لنا الغبريني في عنوانه العديد من هذه الحلقات الخاصة التي شاهدها أو حضرها ببجاية، فيذكر أن للفقيه العالم أبي علي حسن بن علي المسيلي مجلساً كان يجلس فيه رفقة أبي مُحَّد عبد الحق الأشبيلي(516-582هـ/1122-1186م) والفقيه العالم أبي عبد الله مُحَّد بن عمر القرشي،وكانوا يجلسون بالحانوت الذي هو بطرف حارة القدس، حيث كان هذا الحانوت يسمى مدينة العلم لاجتماع هؤلاء الثلاثة فيه.

وكان للشيخ أبي عبد الله مُحَّد بن الحسن بن ميمون التميمي القلعي(ت 673هـ/1274م) مجلساً يحضره خاصة الطلبة من النجباء و المجتهدين.

كما كان للشيخ أبي عبد الله مُحَّد بن صمغان القلعي مجلساً خاصاً للتدريس يعلو سقيفة داره حيث يجتمع إليه خواص طلبته.

ويذكر ابن قنفذ القسنطيني أن أبا عبد الله بن يحيى الباهلي المسفر(ت 744هـ/1348م)،كان له مجلسا علميا ببجاية يؤمه الفقهاء والفضلاء والصلحاء.

كما عرفت تلمسان الحلقات الخاصة والتي ساهمت مساهمة فعالة في تطوير التعليم والارتقاء بالحركة الفكرية بصفة عامة، كحلقات آل المقري، وآل العقباني وغيرهم من العلماء.

بالتوفيق